القرآن الكريم
يصف لنا الروح الأمين

القرآن الكريم
يَصِفُ لنا الرُّوحَ الأمين

لنعلمَ أنَّ أحداً لم يستطعْ ـ ولن يستطعَ ـ أن يُغالبَ القرآنَ.

ولنتدبر دلالةَ القَسَم، والمُقْسَمَ عليه في قوله تعالى:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ ﴾.[1]

إنَّ المناسبة بين المقسَم به والمقسَم عليه يمكن إدراكُها إذا تبيَّنا دلالة ما جاء في القَسَم ـ أوَّلاً ـ من كلمات:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ ﴾: وهي النجومُ تَخْنَس بالنهار، وتظهرُ بالليل.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ ﴾: أي أدْبَرَ أو أَقْبَلَ.

أقسَمَ بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق.

---

(1) التكوير: ١٥ـ ٢٧.

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ يقالُ للصبح إذا زادَ " تَنَفَّسَ ".

ومعنى التنفُّس: خروج النَّفَس من الجَوْفِ. واستعماله في الصحيح دلالة حركة وحياة، تُرى في الأشياء كما تُرى في الإنسان.

وفي تنفُّس الصبح حركة حياة تَدُبُّ في كل شيء.

ومَن رأى الفجر لم تغبْ عنه دلالةُ إسناد التنفس إليه.

وهذا الإسناد قد قيل في كيفية المجاز فيه قولان:

الأول: أنه إذا أقبل الصبحُ أقبل - بإقباله - رَوْحٌ ونسيمٌ، فجعل ذلك نَفَساً له، على المجاز، فقيل: "تنفَّس الصبحُ ".

الثاني: أنه شبَّه الليل المظلمَ بالمكروبِ المحزون، الذي حُبِسَ بحيث لا يتحرك، فإذا تنفَّس وَجَدَ راحةً. وههُنا لَمَّا طلع الصبحُ، فكأنَّه تخلَّص من ذلك الحُزن، فَعَبَّر عنه بالتنفس.

ذلك هو القَسَم على طبيعة الوحي، وصفة الرَّسُول الذي يحمله، والرَّسُول الذي يتلقَّاه.

إنه قَسَمٌ لا يخلو من تناسُبٍ بينه وبين المقسَم عليه.

تناسبٌ لا ينقضي عجبُ المتأمل فيه.

فالمقسَم به: حقائق كونية، ذات تأثير بالغ في حياة كل شيء.

والمقسَم عليه: حقائق نورانية، يبصرُ بها الإنسانُ حقيقةَ كل شيء.

المقسَم به ترتفعُ به الرؤوس إلى أعلا؛ لتراه - أوَّلاً - في السماء.

والمقسَم عليه ترتفعُ به النفوس عن الخلود إلى الأرض واتِّباع الأهواء.

المقسَم به فيه إقبالُ صُبْحٍ وإدبار ليل، فيه نورٌ وظلام.

والمقسَم عليه فيه إخراجٌ للناس من الظلمات إلى النور.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ﴾ يعني: أن هذا القرآن لتبليغ رسولٍ كريم، أي ملكٌ شريف، حَسَن الخَلْق، بَهي المنظر. وهو جبريل عليه السلام.

﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾: أي شديد الخَلْق، شديد البطش والفعل.

﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: له مكانة عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومنزلة رفيعة.

﴿ مُّطَاعٍ ﴾ أي: له وجاهةٌ، وهو مسموع القول، مُطاع في الملأ الأعلى.

﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ أي: في السموات. يعني ليس هو من أفنادِ الملائكة، بل هو من السَّادة والأشراف، معتَنَى به، انتُخِبَ لهذه الرسالة الرفيعة.

﴿ أَمِين ﴾: صفةٌ لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أنَّ الربَّ ـ عزَّ وجلَّ ـ يُزكِّي عبدَه ورسولَه الملكيَّ جبريل، كما زكَّى عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

والمراد بقوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ محمد ﷺ .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريلَ ـ الذي يأتيه بالرسالة عن الله على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح.[1]

---

(1) راجع: صحيح البخاري، كتاب بَدْء الخلق، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان.

﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: البَيِّن.

وقوله: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: وما محمدٌ على ما أنزله الله إليه ببخيلٍ، بل يبذله لكلِّ أحد.

قال سفيانُ بن عيينة: « ظنين، وضنين سواء. أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظَّنين: المُتَّهَم، والضَّنين: البخيل ».

وقال قتادة: « كان القرآن غَيْباً، فأنزله الله على محمدٍ، فما ضَنَّ به على الناس، بل نَشَرَه وبلَّغه لكل مَن أراده ».

وقوله: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي: وما هذا القرآن بقول شيطانٍ رجيم، أي: لا يقدر على حَمْله، ولا يريده، ولا ينبغي له.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾.[1]

وقوله: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: عن كتاب الله وعن طاعته، أو فأين تذهب عقولُكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه وبيان كَوْنه حَقاً من عند الله ؟!

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: هذا القرآن ذِكْرٌ لجميع الناس، يتذكرون به ويتَّعِظون.

---

(1) الشعراء: ٢١٠ـ ٢١٢.

تلك طبيعة الوحي، وصفة الرَّسُول الذي يحمله، والرَّسُول الذي يتلقّاه.

إنَّ الصفات التي أجراها الله على جبريل في هذه الآيات البيِّنات، ليست بمعزلٍ عن صفات الرَّسُول ﷺ وبيان ما أُنزل عليه.

وقد أجرى الله على نبيِّنا ﷺ صفات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝ ﴾.[1]

فإفراد أحد الشخصين بالذِّكر، وإجراء صفاته عليه، لا يدلُّ على انتفاء تلك الصفات عن الآخر.

والتواصل قائم بين مَن نَزَلَ بالقرآن ومَن نَزَل عليه، فإذا وُصِفَ جبريلُ، فاعلم أنها صفاتُ حَقٍّ وُصِفَ بها جبريلُ؛ ليُعرف قَدْر الحق الذي نزل به، والذي أُنزل عليه.

وإذا وُصِفَ الرَّسُولُ ﷺ بصفاتٍ، فاعلم أنها صفاتُ حَقٍّ؛ لبيان خصائص الحق في نَفْعِه ومُكثه وبقائه.

وقد نزل به أمينُ الله على رسول الله.

والحقُّ نورٌ تقومُ به الحياة، وَحَبلٌ واصلٌ من السماء يعتصمُ به الأحياءُ، ويرتفعون به عن الخلود إلى الأرض واتِّباع الأهواء.

﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[2]

---

(1) الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

(2) البقرة: ١٤٧.

ومن أجله خَلَقَ الله السماوات والأرض، وأرسل الرسلَ، وأنزل الكتاب.

ومن أجله تنزَّل جبريلُ بأمر ربِّه على محمدٍ، وعلى جميع الرسل والأنبياء.

ومن أجله يقعُ الحسابُ، ويكون الجزاء، وينعَم فريقٌ في الجنة، ويشقى فريقٌ في السعير.

إنَّ هذه القوة والمكانة التي وُصِفَ بها جبريل ـ وهو يغدو ويروح بين السماء والأرض في سرعةٍ خاطفة بأمر الله ـ لها دلالتها في تعظيم رسالة الرَّسُول ﷺ، وعلى منزلته ومكانته.

ومن أمعَنَ النظر في الصفات التي أجراها الله على جبريل ـ في مقام الحديث عن رسالة محمدٍ ﷺ ـ عَرَفَ أنها لتعظيم رسول الله ﷺ، وأنه بَلَغَ من المكانة وعُلو المنزلة عند ذي العرش، بأن جَعل السَّفيرَ بينه وبينه مثل هذا المَلَك المُقَرَّب المُطَاع الأمين.

فالقولُ في هذه الصفات ـ بالنسبة إلى رسول الله ـ ﷺ رِفعة منزلة له، كالقول في قوله: ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ ﴾ بالنسبة إلى رِفعة منزلة جبريل عليه السلام.

قد لا ترى جبريلَ عليه السلام مذكوراً باسمه أو ضميره إلاَّ في آيات معدودات، ولكنك ـ وأنت تقرأ القرآن ـ تتبعه قارئاً، وتراه حاضراً وإن لم تره.

وقد حُفِظَ القرآن، فحُفظت به خصائص الروح، ودلائل النبوة، ومعالم الرسالة، وعرف الناسُ مقاصدَ الدين، وما نزل به الرُّوحُ الأمين على قلب خاتم المرسلين، وغدا الإيمانُ بذلك إيمانُ بَيِّنَةٍ ومعرفة.

فلم يفارقنا ما كان به الرَّسُول رسولاً ، وإنْ لَقِيَ ربَّه.

ولم يفارقنا ما نزل به جبريل، وإن انقطع عهدُه بالدنيا بعد أنْ لَحِقَ الرَّسُول ﷺ بالملأ الأعلى.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ « أنَّ جبريلَ عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ في مرضه الذي قُبض فيه.

فقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُقرئك السلامَ، ويقول: كيف تَجِدك ؟

قال: « أجدني وَجِعاً يا أمين الله ».

ثم جاءه من الغَد، فقال: يا محمد، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُقرئك السلامَ، ويقول: كيف تَجِدك ؟

قال: « أجدني يا أمين الله وَجِعاً ».

ثم جاءه في اليوم الثالث ومعه مَلَكُ الموتِ، فقال:

يا محمد ، إنَّ ربَّك يُقرئك السلامَ، ويقولُ: كيف تَجِدك ؟

قال: « أجدني يا أمين الله وَجِعاً. مَنْ هذا معك ؟ ».

قال: هذا مَلَكُ الموت عليه السلام..

وهذا آخر عهدي بالدنيا بعدك، وآخر عهدك بها..

ولَنْ آسى على هالكٍ من وَلَدِ آدم بعدك..

ولن أهبط إلى الأرض إلى أحدٍ بعدك.

فوجد النبي ﷺ سكرةَ الموت، وعنده قَدَحٌ فيه ماء.

فكلما وَجَدَ سكرةً أخذ من ذلك الماء، فمسح به وجهه، وهو

يقول: « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ».[1]

نعم، كان ذلك آخرُ عهد جبريل بالدنيا، وآخر عهد رسول الله ﷺ بها.

ولكن القرآن الكريم ـ الذي من أجله تنزَّل جبريل وأُرسل الرَّسُول ـ قد حُفِظَ بحِفْظِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

فبقي لنا قَوْلُ جبريل، وامتدَّ ذِكرهُ، وحُفِظَ أَثَرُهُ.

وإنَّهُ ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

كما بَقِيَ لنا الرَّسُول ﷺ أُسْوةً وقُدوةً إلى يوم الدِّين.

بقيَ الرَّسُول ﷺ فينا برسالته.

وبقي الرُّوحُ الأمين مذكوراً بقوَّته وأمانته.

ولن يكون هناك إيمانٌ بغير الإيمان بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخر.

* * *

(1) ابن ماجة: كتاب الجنائز.